التحرّر الاقتصادي والاجتماعي

يمارس عليها سلطانه الذي يستمده من طبيعة المجتمع والحقوق الممنوحة له رغم ان الرجل والمرأة خاضعان كلاهما للاضطهاد والاستغلال . وبدلا من ان يشكل هذا الوضع حافزا لهما للنضال سوية ضد الاضطهاد الذي يتعرضان له فاننا نرى الرجل يكرس الاضطهاد الذي يتعرض له اثناء عمله في بيته ضد زوجته وبناته واخواته . وكأنه بذلك يحاول استرداد شخصيته الضائعة امام سلطان وسيادة الرأسماليين والاقطاعيين .

ان المجتمع يتحمل المسؤولية الكاملة فيما يتعلق بالاضطهاد الذي تتعرض له المرأة . ولم يعد موضع مناقشة او جدل . ان عدم اطلاق حرية المرأة ومساواتها بالرجل امر يعتبر من اكبر العوائق التي تعترض سبيل اطراد تقدم المجتمع وتطوره ويتضح ذلك عندما نعلم ان المجتمع كان وما يزال قادرا بصورة دائمة على تطويع القيم الاخلاقية والدينية حسب ضروراته الاقتصادية اي حسب النظام الاقتصادي الذي يفرضه اصحاب السلطة والحكم، ويستطيع رجال الدين دائما في كل عصر من عصور التاريخ ان يطوعوا دينهم حسب النظام السائد . فمثلا ، ان النظام الاقطاعي اذا تغير واصبح نظاما رأسماليا فان رجال الدين يجدون بسرعة في دينهم ما يتفق مع الرأسمالية . ولهذا فان الذي يدرس بعمق علاقات رجال الدين برجال السلطة في مختلف الانظمة والعصور ، يندهش كيف يمكن للدين الواحد مثلا ان يجمع بين كل هذه المبادىء والقيم المتناقضة ، كان يجمع بين القيم الاقطاعية والقيم الرأسمالية ، والقيم التي تحرم تحديد النسل ، والقيم التي تحرم الاجهاض ، والقيم التي تبيحه ، والقيم التي تحرم عمل المرأة خارج البيت والقيم التي تمجد عملها خارجه (حين يحتاج المجتمع الى سواعد النساء) .

ولا يختلف علماء النفس كثيرا عن رجال الدين في علاقتهم برجال السلطة ، لذلك تنغر بسيكولوجية الطفولة وبسيكولوجية الامومة والابوة حسب النظام الاقتصادي السائد ، حينما لا يحتاج المجتمع الى سواعد النساء بسبب توافر سواعد الرجال والايدي العاملة .

ان بقاء المرأة في البيت وتفرغها لرعاية اطفالها يصبح ضرورة لصحة الاطفال النفسية وايضا لصحة الام النفسية وحسب مقتضيات سيكولوجية المرأة الطبيعية . فاذا نشبت الحرب وامتصت الايدي العاملة من الرجال واصبح المجتمع بحاجة الى سواعد النساء ، اذ بعلماء النفس يسرعون في تقديم نظريات جديدة ويصبح غياب الام في المصنع او العمل مفيدا لصحة الاطفال النفسية كالرجل تماما ... وهكذا دواليك .

وعندما يكون المجتمع فقيرا يعاني من انخفاض شديد في المستوى الاقتصادي للناس يكون انجاب الاطفال خارج الزواج محرما وتعاقب المرأة عليه لانه يهدد المجتمع اقتصاديا ، ذلك لان المرأة لم تكن تعمل بل كانت عالة على الرجل لهذا اشتدت القيود الاخلاقية على النساء وحرمت العلاقة الجنسية خارج الزواج وادانت الاطفال غير الشرعيين .

وحينما انتعش المجتمع اقتصاديا بتطور الصناعة وزيادة الثروات وارتفع المستوى الاقتصادي والثقافي للناس وبالتالي انخفض عدد المواليد بدرجة شديدة اصبح المجتمع يعاني من نقص في السكان فاذا به يتغاضى عن ولادة الاطفال بأي شكل سواء داخل الزواج او خارجه .

وبعد ان حرمت العلاقات الجنسية في المجتمعات تبعا للضرورات الاقتصادية حللت ايضا لنفس الضرورات واصبحت هذه الحرية ضرورية لحماية المجتمع الرأسمالي من التمرد والثورة .

ان تغيير هذه القيم لهو دليل على ان الذي يحرك المجتمع حقيقة ليست هي القيم الاخلاقية وانما هي القيم التجارية ومنطق الربح والخسارة . وما اسهل ما يتنازل المجتمع الطبقي عن قيمه الاخلاقية اذا تعارضت مع قيمه التجارية .

وتتحمل النساء اكثر من الرجال وزر زيف المجتمع وتدفع النساء اكثر من الرجال ثمن التعارض الذي يواجهه المجتمع بين قيمه التجارية وقيمه الاخلاقية، والسبب في ذلك يعود لكون الرجل هو الذي يحتكر الحكم في المجتمع وهو الذي يصدر القرارات التجارية والاخلاقية المتعارضة .

كل هذا طبيعي في مجتمع فقدت فيه المرأة مكونات شخصيتها وافرغت من انسانيتها وتحولت الى شيء او اداة للامتناع وخدمة الشهوات وهي تارة وعاء للاطفال وتارة سلعة تباع وتشترى في سوق الزواج.

ان الانظمة الاقتصادية المختلفة على مدى التاريخ سخرت لخدمتها الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم والسياسي . واجتهد كل واحد منهم باختراع واستنباط الافكار والنظريات والتعاليم والتشريعات لتكريس سلطة الطبقة الحاكمة المستغلة والمضطهدة للطبقات والشعوب الادنى منها تطورا لاسباب اقتصادية استغلالية (ان مخ الرجل الاسود اقل تطورا ورقيا من مخ الرجل الابيض) تطور النظرية التي تقول الى نفسية العبد تختلف عن نفسية السيد . المحاولات العلمية في مختلف العلوم الطبية والاندبولوجية والنفسية لاثبات فروق « لصالح الرجل » بين مخ المرأة ومخ الرجل بين اعضاء الرجل والمرأة بين نفس الرجل ونفس المرأة وعرفنا في علم النفس ما يسمى بسيكولوجية الانثى) .

ولولا وجود هذه الجوقة التي تعزف على وتر تحليل استباحة استغلال واضطهاد الطبقات الغنية للطبقات الفقيرة ، لما استطاعت هذه الانظمة الصمود طويلا امام تعاظم قوة وبأس المضطهدين والمستغلين صانعي التاريخ البشري .

ولما كانت الصناعة تقوم على الجهد الانساني لعدم وجود الات. كان المجتمع في اشد الحاجة الى عرق العمال وجهدهم ليل نهار ولم يكن يستطيع المجتمع ان يحقق ذلك الا بالقوة عن طريق القهر المادي او الاجتماعي

ان التقسيم الاول للعمل في (التاريخ الانساني حدث بين الرجل والمرأة في رعاية الاطفال ، وكان اول صراع طبقي في التاريخ هو الصراع بين الرجل والمرأة في ظل الزواج الوحداني وان اول خضوع طبقي كان خضوع الزوجة لزوجها ...)
فريدريك انجلز

• ان عدم اطلاق حرية المرأة ومساواتها بالرجل يعتبر من اكبر العوائق التي تعترض سبيل تقدم المجتمع وتطوّره

• ان الطبقة الحاكمة تسخر لخدمتها الطبيب ورجال القانون والدين والسياسة..

للعمل بجعل العمل والصناعة ضرورة نفسية مجرد [illegible] فحسب . ولهذا فقد صاحب تجميع رأس [illegible] في تلك الازمة الاولى للرأسمالية مجموعة من [illegible] الاخلاقية ترتكز على العفة والتطهر والعزوف عن [illegible] الحياة والاستقامة بشتى اشكالها .

وحينما استدعي التطور التكنولوجي واستمرار التطور الاقتصادي زيادة في استخدام الالات والمكنات [illegible] ما تبعه من التقليل من الاعتماد على القوة الجسمية [illegible] الاستغناء عنها في بعض الحالات حينئذ فقدت هذه [illegible] الاخلاقية وظيفتها واصبح من الطبيعي لمجتمع [illegible] استغلالي ان لا يمجد قيم العزوف عن متع الحياة [illegible] الاستهلاك والادخار والتسامي وغيرها من القيم التي [illegible] الفرد وبدلا من ذلك اصبح المجتمع في [illegible] الى ان يصنع لنفسه اخلاقيات اخرى تعتمد [illegible] اشباع رغبات الانسان وحاجاته بل وخلق [illegible] حاجات جديدة في الانسان وتجميد معنى الانفاق [illegible] الاستمتاع بالحياة .

[illegible] لا شك فيه ان التغيير الاخير الذي حدث في نظرة البلاد الرأسمالية المتقدمة الى القيم الاخلاقية وفي اتجاه هذه البلاد الى تحطيم المحظورات التقليدية على علاقة الرجل والمرأة وتحرير الجنس من قيوده القديمة هذا التغيير لم يحدث الا نتيجة تغيير الوسائل لتجميع رأس المال ولتمييع التناقضات الطبقية .

وتفاوت تأثر الفئات الاجتماعية ومعاناتها من جراء هذه الاخلاقيات حسب تفاوت وضعهم الطبقي نساء ورجالا. فالاغنياء رغم تأثرهم النسبي بهذه النظريات الاخلاقية لم تكن تعني لهم سوى انها الوسيلة التي اضطروا لاتباعها لتكديس ثرواتهم من خلال استغلال الطبقات الفقيرة المتخدرة بفعل التعاليم الدينية التي تخدم في جوهرها بقاء وسيادة طبقتهم .

اما الفقراء نساء ورجالا فقد كانوا يرون في هذه الاخلاقيات تشريعا لتنظيم حياتهم ، كما كانوا يفهمونهم .

وما الصراعات الطبقية التي كانت دائرة في الماضي ويزداد اوارها حاليا الا شكل من اشكال التمرد على العلاقات الانتاجية السائدة بهدف تحرير الانسان والانسانية من القيود التي اخذت تعيق تطوره وتعمق اصالتها لتخفف عن البشرية الامها .

وكانت المرأة تتهم بالجنون والزندقة والشيطنة ويحكم عليها بالموت اذا تمردت على واقعها المهين كما كانت تباد الاف بل ملايين العبيد لتمردهم على الطبقة الحاكمة المستبدة .

ان النظرة الى المرأة ما زالت تختلف من مجتمع الى اخر ومن طبقة الى اخرى .

ففي المجتمعات المتخلفة بقيت المرأة خاضعة لسلطان الاسرة الابوية بكل عاداتها وتقاليدها وتشريعاتها الساحقة لنفس المرأة وعقلها وجسدها، حيث افرغت المرأة من مضمونها الانساني وحرمت من حقها في التعليم والتاهيل والعمل وحرمت من حرية التعبير عن رأيها ومشاعرها . ونعتت باقبح الصفات ، وكانت تضرب واحيانا تقتل . ولم تكن سوى مجرد عبدة للمنزل والزوج والطلاق .

البورجوازية تكرس اضطهاد المرأة واستغلالها

اما في المجتمعات الرأسمالية حيث استولت البورجوازية على السلطة وسحقت تحت اقدامها العلاقات الاخرى ، وحطمت دون رأفة الصلات المزخرفة التي كانت في عهد الاقطاعية تربط الانسان « بسادته الطبيعيين » ، ولم تبق على صلة بين الانسان والانسان الا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف « نقدا وعدا » وافرغت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البورجوازية الصغيرة في مياه الحساب الجليدية المشبعة بالانانية ، وجعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادل لا اقل ولا اكثر ... فهي باختصار ، استعاضت عن الاستثمار المقنع بالاوهام الدينية والسياسية ، باستثمار مكشوف شائن مباشر وانتزعت البورجوازية عن المهن والاعمال المحترمة المقدسة كل بهائها ورونقها وقداستها ، وادخلت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم في عداد الشغيلة المأجورين في خدمتها .

ولم يعد الجسد الانساني مع هيمنة البورجوازية اداة للذة المتبادلة والاستمتاع بل اصبح جسد الرجل اداة توظف في الانتاج المستلب ، وجسد المرأة اداة لانتاج الاطفال، اي انتاج اليد العاملة .

وكما يقول انجلز « يمثل الرجل في العائلة دور البورجوازي وتمثل المرأة دور البروليتاري » ، فان اضطهاد المرأة وان كان جذره ما قبل التاريخ هو العلاقات الاقتصادية ، ليس اليوم مجرد اضطهاد اقتصادي ، انه تكثيف لكافة الاضطهادات التي عانى منها الكائن البشري .

واذا كان التطور الصناعي في هذه البلدان قد ادى الى اخراج جماهير نسائية واسعة من البيوت الفردية لتحويلها الى عاملات ، جعل منهن مستقلات اقتصاديا الا انهن بقين خاضعات اجتماعيا لسلطة الرجل ولا يتساوين معه لا بقوانين العمل ولا بقوانين الاحوال الشخصية ولا حتى في مجالات العمل ولا بالسياسة ، كما زاد اضطهاد النساء اللواتي خرجن للعمل خارج المنزل اكثر من غيرهن لانهن كن يضطررن